مظاهر مقاومة الفرنسة ونشر اللغة العربية
عند الأمير عبد القادر

أ . سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2 .

الملخص:

يدخل هذا المقال في إطار مقاومة الشعب الجزائري لسياسة الفرنسة و الاستراتيجية المنتهجة من قبل السلطات الفرنسية في محاربة اللغة العربية في الجزائر إبان الاحتلال . ويعتبر الأمير عبد القادر الجزائري رائد الأدب الجزائري الحديث ، فلا تزال آثاره الأدبية الشعرية و النثرية تدرس في الجامعات ؛ بل يمكن اعتبار أدب الأمير عبد القادر منطلقا للأدب العربي الحديث مع محمود سامي البارودي وغيره .. وفي الوقت ذاته كان الأمير رائدا للمقاومة الجزائرية في الجانبين العسكري و الثقافي .. وهذا المقال يتناول بعض مظاهر مقاومة سياسة الفرنسة عند الأمير عبد القادر في الدولة الجزائرية الحديثة .

Résumé :

Cet article porte sur la résistance du peuple algérien à la stratégie adoptée par les autorités françaises pour combattre la langue arabe et à la politique de francisation de l'Algérie durant la colonisation. L'Emir Abdel Kader, chef militaire de la résistance algérienne incarne aussi la résistance culturelle du fait qu'il est un pionnier de la littérature algérienne contemporaine, dont les proses et les poèmes sont étudiés dans les universités. On pourrait même dire que les œuvres de l'Emir Abdel Kader constituent un point de départ pour la littérature arabe contemporaine avec Mahmoud Sami El Baroudi et d'autres auteurs. Cet article traite quelques aspects de la résistance à la politique de francisation chez l'Emir Abdel Kader dans ce que l'on peut appeler l'Etat algérien moderne.

لقد عملت فرنسا منذ دخولها الجزائر سرا و علانية على تحطيم الكيان الثقافي الجزائري للقضاء على مقومات الشخصية العربية الإسلامية للجزائر ، بهدف فصلها عن جسم العروبة والإسلام ، وإدماجها في كيان فرنسا الثقافي والحضاري و الديني واللغوي ، وراء البحر الأبيض المتوسط في القارة الأوروبية ، ولأجل ذلك وضعت فرنسا في سياستها الاستعمارية أهدافا أساسية وعلى رأسها سياسة الفرنسة والقضاء على اللغة العربية .

لقد عملت فرنسا ـ للوصول إلى غرض الفرنسة ـ على محاربة اللغة العربية باعتبارها منافسا للغة الفرنسية ، و للوجود الفرنسي في الجزائر ،لقد عملوا على اختفاء اللغة الوطنية و هي العربية، فقد اعتبرها الفرنسيون لغة أجنبية و ميتة ، أجنبية لأن اللغة الفرنسية كانت قد أصبحت لغة الجزائر الرسمية منذ قرار الإلحاق سنة 1834 ، مادام هذا القرار في حد ذاته كان يعني أن الجزائر نفسها قد أصبحت فرنسية ، و ميتة لا لأنّ مصيرها قد انتهى كمصير اللاتينية والإغريقية فقط ، و لكن أيضا لأنها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة . وكانت الإدارة الفرنسية تمنع اللغة العربية على الجزائريين من جهة ، و تقدم اللغة الفرنسية كبديل لها من جهة أخرى ، حتى تضع الجزائريين في موقف الاختيار بين الفرنسية أو الجهل ، وقد فضل الكثير منهم أن يبقى أولادهم أميين على أن يرسلوا بهم إلى المدارس الفرنسية . لقد قامت فرنسا بسياسة واضحة المعالم و وضعت استراتيجية مدروسة ، على المستويين النظري ، و ذلك بإصدار القوانين ، و المراسيم .. أو المستوى التطبيقي حيث عملت على هدم المدرسة العربية، وإنشاء المدرسة الاستعمارية ذات الأبعاد الفرنسية و الأوروبية ..

وفي المقابل قاوم الشعب الجزائري والحركة الوطنية هذه السياسة وفق سياستي خذ وطالب من جهة ، وسياسة المغالبة من جهة أخرى ، وقد برزت العديد من

الحركات الجهادية الفردية و الجماعية حملت على عاتقها مقاومة هذه السياسة ، ونم أبرزها خلال القرن التاسع عشر مقاومة الأمير عبد القادر .

ومن هذا المنطلق كان البحث في موضوع هام في حقل الدراسات التاريخية المرتبطة باللغة ، **تكمن** إشكاليته في السؤال المحوري الآتي : ما هي مظاهر مقاومة الأمير عبد القادر لسياسة الفرنسة وما هي مجهوداته في الحفاظ على اللغة العربية ؟

ومن هنا فالمقال يهدف إلى إبراز دور الأمير عبد القادر في الحفاظ على اللغة العربية ومقاومة سياسة الفرنسة .

1. ظهور الأمير كقائد للمقاومة بالغرب :

أمام الخطر الاستعماري الراغب في بسط نفوذه على كامل التراب الجزائري ، ظهرت المقاومة العسكرية ، و الرفض التام للاحتلال وظهرت التعبئة والتنظيم ، وظهر الأمير عبد القادر بن محي الدين المولود بالقيطنة قرب معسكر سنة 1806م ، والذي تعلم في الجزائر وفي وهران على وجه التحديد ، ثم في المغرب العربي ، وفي المشرق ، ولقد اتجهت إليه كلمة العلماء والأعيان لتحمله مسؤولية الجهاد ضد الكفار في الجزائر المسلمة [1] .

لقد تمت مبايعة الأمير عبد القادر بن محي الدين على الإمارة والجهاد من قبل العلماء والأعيان والشعب في الغرب الجزائري في يوم 27 نوفمبر 1832 ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر [2] .

استمرت مقاومة الأمير للفرنسيين إلى غاية 1847 ، أظهر فيها الأمير أنه رجل سياسة وحكمة، ورجل فنون حربية ، ورجل ثقافة وأدب وتقوى، مواقفه خالدة ومؤلفاته عديدة .

لقد استرجع الأمير أسس الدولة الجزائرية " فكان يراها دولة جزائرية موحدة ذات طابع ديمقراطي اجتماعي ، وأقامها على وعد وصفه بقوله : " سأحكم والقانون بيدي " ، راميا بذلك تحقيق دولة القانون ، وتحقيق العدل والمساواة بين

الناس ، وبذلك استطاع أن يتغلب على النزاعات العشائرية والقبلية في صالح الشعور بالانتماء الوطني عند الشعب الجزائري ، وفي هذا الشعور تكمن فعلا هويتنا" [3] .

2 سقوط الحكم المركزي العثماني بقيادة الباي حسن و بروز الحكم العربي في شخص الأمير :

إن المقاومة في الإقليم الغربي عرفت نفس منحى المقاومة في الوسط خلافا لما كان في الشرق فقد سقط الحكم المركزي بقيادة الباي حسن " الذي كان يحس بأنه حاكم لا تربطه بالمحكومين أية رابطة ... وقد ظل في الحكم طيلة سنوات فلم يصلح الأوضاع المعاشية للناس ، ولم يجعل نفسه حاكما محبوبا أو قريبا من المواطنين ، بل كان سجينا بين أسوار المدينة يخاف الثورات والاغتيال ... كان الباي حسن مقطوعا عن مقومات هذا البلد ، جاء أجنبيا وبقي أجنبيا وخرج أجنبيا " [4].

" لقد فضل الباي أن يسلم مفاتيح المدينة إلى العدو بعد أن ضمن له الخروج سالما من وهران ثم من الجزائر إلى حيث يريد ، وكان له في حسين باشا خير مثل " [5] .

" لقد نجح الأمير عبد القادر في جمع شمل القبائل وشيوخها في الغرب الجزائري ، ومد يده إلى أغلب الزعماء والشيوخ والعلماء والأعيان في منطقة القبائل والشرق الجزائري وجنوبه ... بل مد أيضا يده طالبا المساعدة والأخوة الإسلامية لدى الأشقاء العرب خاصة المغرب وتونس والدولة العثمانية ، إلا أن خوفهم على عروشهم وأنظمتهم من قوة فرنسا وبطشها جعلهم يتراجعون ويلتزمون الحياد ، وأي حياد هذا والذئب الكافر يعيث في أرض الإسلام فسادا " [6] ، وهنا **تتبين عروبة الأمير** والتماسه العون عند استعانته بالعرب نظرا للهوية التي يتمتع بها هذا الوطن .

لقد مهدت هذه الظروف في الغرب الجزائري ، السياسية والعسكرية لقيام دولة الأمير ، وإن مقاومة الأمير تمثل عهدا بذاته في تاريخ الجزائر ، لقد كانت للأمير عبد القادر مميزات شخصية كثيرة جعلت منه قائدا للجهاد والمقاومة ضد المحتل. ونحن في هذا البحث لا يمكن أن ندخل في تفاصيل شخصيته ومعاركه وتنظيماته العسكرية والسياسية ، ولا إنجازاته وانتصاراته ، فالرجل قد كتب عنه مؤرخون كثيرون ، ولا غرابة في ذلك ، إذ فرض نفسه على التاريخ، وفرضه التاريخ على الناس ، ولكني سأحاول أن أربط بين مقاومته والحفاظ على عناصر الهوية الجزائرية لاسيما دفاعه عن اللغة العربية.

3 . نشأة الأمير العربية و تأثيرها في محاربة الفرنسة :

لقد كانت البيئة التي ولد فيها الأمير وتربى فيها بيئة غنية ومتنوعة ، كما أن نسبه وارتباطه بالإسلام والعروبة ، ومكانة أسرته قد جعلته فخورا ومعتزا بشرفه ، وهذه النخوة القومية هي التي دفعته إلى حمل السلاح والدفاع عن الوطن والأرض والعرض ، وكان في كل أعماله ومواقفه يتمثل بأبطال العرب والإسلام ، ويستوحي سيرتهم ومثالهم .

تظهر عروبة الأمير عبد القادر " في كونه منذ شبابه ولوعا بالصيد وركوب الخيل وحب الطبيعة، وهي خصال عربية صميمة .. وإلى جانب ذلك كان ولوعا بالقراءة والتأمل ، لذلك اشتهر بجمع الكتب والحرص عليها ، ومكافأة من يحفظها ، وكان يحترم العلماء ويجلهم ، حتى أنه كان ينقذ حياتهم إذا ثبت عليهم ما يوجب قتلهم ، وكانت مكتبته من أغنى المكتبات كثرة وتنوعا ، واشتهر بالولاء التام لوالده ... وهو تقليد عربي إسلامي "[7].يمكن العودة إلى من كتب عن سيرة الأمير عبد القادر و تتبع طلبه للعلم ، ثم هجرته إلى المشرق و اطلاعه على كنوز العرب ، ثم عودته إلى الجزائر ، ووجود المحتل قد احتل أرضه ، و هو الشاب الشاعر و الفارس في نفس الوقت .

4 . جهاد الأمير ضد سياسة الفرنسة :

" بعد أن اجتمع أعيان الجزائر لاسيما بغربها ، وبعد عقد مشاورات طويلة فيما يخص مآل البلاد بعد الاحتلال لجؤوا إلى محي الدين عارضين عليه الإمارة فاعتذر إليهم متذرعا بشيخوخته " [8] ، وقدم ابنه عبد القادر الذي عرف من قبل بشجاعته في مقاومة الفرنسيين كي يكون أميرا .

لقد صرف الأمير همته إلى تجديد دولة قوية متحدة لها كيانها ودستورها ونظامها ، وعمل على إصلاح الأحوال ، وتنظيم الجند في تلك الإمارة استعدادا لمعاودة القتال عند الحاجة ، وألف كتابه " وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب " ، " لا شك أن الوطنية قد تطورت بسرعة نتيجة تصرفات الأمير فهو الذي أخرج الوطنية من ميدان النظرية التي نادى بها خوجة مثلا إلى ميدان التطبيق ... وبفضله تدعم التفكير الوطني الجزائري ، كما تدعم الفكر القومي العربي " [9] .

وإذا تتبعنا مقاومة الأمير فإننا نجدها تصب في حماية الوطن الجزائري العربي الإسلامي من الاحتلال الأجنبي ، وصد كل المحاولات التي تسعى لفرنسته ، وكل ذلك نابع من المميزات التي تميز بيئته وشخصيته، لقد عرف الأمير بحبه للإسلام و هو عنصر أساسي من عناصر الهوية الجزائرية .

ومن ضمن عناصر الهوية التي اهتم بها الأمير عبد القادر اللغة العربية ، فإذا نظرنا في إنتاجه الفكري بمضمونه الغني ، وتعبيره بلغة عربية قحة تبين لنا قوة مقاومته لسياسة الفرنسة بالقول والفعل .

5 . الاعتزاز بالعروبة :

أول مظهر في جهاد الأمير عبد القادر ضد سياسة الفرنسة نجد اعتزازه بنفسه ، فقد افتخر الأمير بنسبه " فهو يفتخر بأنه منتم إلى الدوحة النبوية الشريفة ، فهو من الفرع الحسيني الذي يستمد قدره ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكتفي الأمير بهذا الفخر عن كل منصب ، وعن كل رتبة دنيوية ،

لأنه لا مجال للمقارنة والمفاضلة بين فخر وفخر ، خصوصا إذا كانت المقارنة والمفاضلة بين فخر نبوي شريف ، وبين فخر مادي دنيوي :

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب وعن رتبة تسمو .. وبيضاء أو صفرا [10]

ويقول أيضا :

و كان لنا دوام الدهر ذكر بنا نطق الكتاب و لا يزال [11]

وللأمير في كتاباته النثرية و الشعرية جزء هام من دفاعه عن العروبة والدين الإسلامي " ويرتبط فخر الأمير بعروبته ارتباطا وثيقا بفخره الفطري الطبيعي ، إذ لا يمكن لامرئ أن يكون من الدوحة النبوية ما لم يكن عربي الحسب والنسب ، ومما لا شك فيه أن فخر الأمير بنسبه النبوي يظهر واضحا وضوحا تاما لمتتبع ديوانه [12]، أما الفخر بعروبته فهو تابع له .

" وعلى كل حال نلاحظ أن فكرة القومية العربية قد توضحت عنده قبل كثيرين غيره من زعماء العرب ، وسبق بها زمنه بنحو قرن تقريبا " [13] ، ويعتبر الأمير عبد القادر وارثا للسيادة العربية والمجد العربي اللذان يبقيان في نظر الأمير وإن زالت السماء والجبال .

ورثنا سؤددا للعُرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال [14]

هذا أمر موروث و ليس مكتسبا وظفه الأمير في مقاومته سياسة الفرنسة ، لمحاربة الانهزام النفسي من جهة ، و القابلية للاستعمار من جهة أخرى .

6 . **العمل الفعلي لتثبيت العروبة ومقاومة سياسة الفرنسة :**

إن أعظم ما ميز الأمير كإنسان وطني حبه للنظام ، فقد آمن إيمانا عميقا بضرورة تطوير وطنه ، وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به ، لقد أقام دعائم دولة حديثة عمادها سلم إداري تصاعدي مسؤول قاعدته الشيخ وقمته الخليفة الذي هو مسؤول مباشرة للأمير نفسه ، وساند ذلك النظام الإداري بنظام محكم يوفر التموين والتعليم والقضاء والمواصلات والتسليح والمخابرات [15] .

" كان عبد القادر يخطط لإنشاء **مكتبة ومدرسة ثانوية** ، وإذا استخدمنا تعبيره هو " فإن الله لم يشأ ذلك ، فالكتب التي أحضرتها من كل أجزاء الشرق لهذه المكتبة ، أخذت مني عندما استولى ابن الملك على زمالتي ، ومما زاد في سوء حظي أنني كنت قادرا على تتبع طابور الجيش الفرنسي أثناء عودتهم إلى مدينة المدية بأوراق الكتب الممزقة المبعثرة ، تلك الكتب التي كانت كلفتني كثيرا من الوقت والجهد لجمعها " [16] .

وهذا النص يبين لنا أن الأمير عبد القادر كان مولعا بالقراءة وحبه للعلم ، وهذا ذكره كل من ترجم للأمير ، كما أنه كان يسعى لنشر العلم بين أبناء بلده . " فيذكر المؤرخون أنه أثناء سقوط زمالة الأمير في 18 يونيو 1843 أن الغنائم والأسلاب كانت وراء كل تصور ، فإلى جانب آلاف الرؤوس من الحيوانات ، وإلى جانب خزائن بيت المال ، وصناديق الولايات وودائع الحلفاء ... امتدت الأيدي الغاشية إلى مكتبة الأمير والتي تقدر بنحو خمسة آلاف مخطوطة مجلدة تجليدا فاخرا " [17] . و هكذا قضت على أحلامه .

وخلال سنوات 1838 و1839 دفع عبد القادر خططه الإصلاحية إلى الأمام بسرعة فائقة فجيشه وشرطته ومدارسه ومحاكم قضائه المحلية كلها كان قد أعدها ونظمها بإحكام ، كما أكمل حصونه .

لقد كان الأمير عبد **القادر يستعمل اللغة العربية في كل المكاتبات والرسائل** وفي أبسط الأشياء مما أضفى على دولته الجديدة طابع العروبة والإسلام .

6 . 1 . اللغة العربية في جيش الأمير :

كتب الأمير عبد القادر كتاب " وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب" و بين فيه تنظيم الجيش في دولته ، و يتبين من الكتاب استعماله للآيات و الأحاديث ، و لكن قد يقول قائل إن هذا مما هو باستطاعة كل إنسان كتابته ، و لكن يصعب تطبيقه ، لكننا عند الأمير يمكن أن نتبين تميز جيشه عن الجيوش الأخرى حتى في الملبس ، فقط حرص على أن يكون الخط

العربي وسيلة من وسائل تثبيت الانتماء و الاعتزاز ، هذا في المظهر ، إذا نظرنا إلى **كسوة الجندي** " فنجدها تتكون من سروال أزرق داكن مع حمرة ، ومن معطف بني له غطاء للرأس ، وطاقية وشاش صغيرين ، وعلى الكم الأيمن لكل قائد خيطت العبارة التالية : " **الصبر والمثابرة مفتاح النصر** " ، وعلى الكم الأيسر : " **لا إله إلا الله محمد رسول الله** " ، وعلى الكتف الأيمن للآغا بدل الشارة العسكرية عند الأوروبيين كتبت العبارة التالية : " **لا شيء يفيد كالورع والشجاعة** " وعلى الكتف الأيسر : " **لا شيء يظهر كالجهل والعصيان** " [18] .

وكان جميع ضباط الجيش يحملون عبارات مكتوبة على بدلاتهم تعبر عن نفس الاتجاه ، فالصبائحية أو الفرسان النظاميون كانوا يلبسون بدلات بلون بني فقط ، وكان قوادهم يحملون عبارة " **ثق في الله ورسوله ـ جاهد وانتصر** " .

وهذا يبين بوضوح اهتمام الأمير بالعربية حتى في أبسط الأشياء ، فلقد كان الدين واللغة العربية لا في جيشه فقط ولكن في جميع إدارته .

6 . 2 . الاهتمام بالتعليم :

وما دام عبد القادر لا يكل في مساعيه من أجل إيقاظ الشعور الوطني للعرب ، وتوحيده وتوجيهه ، فقد أسس منذ البداية نظاما للتعليم العام بين جميع القبائل ، وقال فيما بعد : واجبي كحاكم ومسلم أن أؤيد وأبعث العلوم والدين ، لذلك فتحت المدارس في المدن وبين القبائل ، وفي هذه المدارس كان الأطفال يتعلمون الصلوات ، ويحفظون تعاليم القرآن وفروضه ، ويعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب " [19] .

فهذه المدارس الابتدائية حافظت على تعليم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن وتفسيره ، مما جعل أبناء القرى والمداشر متعلمين ، كما أن نسبة الأمية انخفضت ، وانتشرت الملكة اللغوية على ألسنة المتعلمين .

" وتتفق معظم روايات القادة الفرنسيين الذين عرفوه عن كثب أنه كان يعمل على بعث " قومية عربية " ، وهم يقصدون بذلك جهوده في جمع كلمة

الجزائريين لمواجهة العدو المشترك ، وقد وصف بذلك الماريشال غاليه والمارشال بوجو والجنرال دوماس والجنرال لاموريس .. وغيرهم ، ولذلك عملوا جميعا على تعطيل هذا المشروع في مهده ، فالحرب التي أعلنها ضده غاليه سنة 1839 كانت خوفا من نجاح الأمير في تدعيم هذه الفكرة الخطرة على الوجود الفرنسي " [20] .

وهذا يبين أن الشعب الجزائري لم يتخل عن هويته ، لهذا بعد خروج الأتراك من الجزائر " تقدم عبد القادر إلى بني وطنه بفكرة بسيطة عظيمة في نفس الوقت ، وهي تتمثل في فكرة قومية عربية " [21] .

6 . 3 . واقع اللغة العربية في معاهدات الأمير مع الفرنسيين :

إن الدفاع عن العربية كان تطبيقيا أيضا حتى في المراسلات والمعاهدات التي كان يعقدها الأمير مع أعدائه ، فأسلوب الأمير في مراسلاته عريق واضح جلي ، لا يزال يلقى الدراسات في معاهد اللغة والأدب ، أما ما يتعلق بالاتفاقيات فيمكن أن نمثل لذلك ما يلي:

<u>إبرام اتفاقية " ديميشال " :</u>

بتوالي انتصارات الأمير وجيشه الفتي اضطر " ديميشل " (Demishel) الفرنسي حاكم وهران أن يعقد معه هدنة في (17 شوال 1249هـ 25 فيفري 1834م) ، اعترف فيها بإمارته على كامل البلاد في مقابل إقراره لفرنسا بالسلطة على مدن الجزائر ومستغانم ووهران وأرزيو [22] .

إن الدارس لنص الاتفاقية يتبين له بجلاء الانتماء العربي لهذا البلد ، فقد جاء في البند الأول من الاتفاقية : " منذ يوم تحرير الاتفاقية يصير ترك الحروب والخصومات بين **الفرنسيين والعرب** " ، كما يلتزم الجنرال ديميشيل و الأمير عبد القادر بألا تقع الخصومة بين **الفرنسيين والعرب** .

نصت المعاهدة أيضا على احترام ديانة الإسلام ، وعوائد أهله .. وهذا يبين كيفية تعامل الإدارة العسكرية مع الشعب الجزائري في الاتفاقيات ، ثم عدم تطبيقها على أرض الواقع .

والملاحظ في هذه المعاهدة وغيرها أنها استخدمت العربية الدارجة المتداولة ، و هذا ما جعل التشكيك في نص هذه المعاهدة لا سيما ما يعرف عن الأمير من قوة البلاغة و قدرته على الكتابة [23] فقد جاء في المادة الأولى [24]: " من اليوم وصاعدا يبطل الطراد بين الفرنصيص والعرب ، الجنرال حاكم جيوش الفرنصيص ، وأمير المؤمنين عبد القادر كل واحد من ناحيته يعمل جهده إلى تحصيل المودة والعهد الذي يلزم أن تكون بين الشعبين اللذين مقدر عليهم من عند الله أن يعيشوا تحت حكم واحد ، و لأجل هذا أمير المؤمنين لازم يرسل من عنده ثلاثة قناصل : واحد لوهران وواحد لأرزيو وواحد لمستغانم ، والجنرال كذلك يرسل من عنده قناصل لمعسكر بيش ما يكون النزاع بين الفرنصيص والعرب .

المادة الثانية : الدين وعوايد المسلمين يكونوا دائما محترمين و محامي عليهم .

وهكذا تقرأ باقي المواد .

فأسلوب المعاهدة ليس بأسلوب الأمير صاحب اللسان العربي و الأديب والشاعر ، و لكن بلغة متداولة .

معاهدة تافنة :

ونصت معاهدة تافنة [25] أيضا على احترام الدين الإسلامي ، والاعتراف بدولة الأمير .

فقد جاء في البند الخامس : " **أن العرب الساكنة** في أرض الفرنسيين [26] تمارس ديانتها بحرية تامة ، ولهم أن يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الإسلامي " ، وقد كانت هذه المعاهدة مع بيجو في 30 ماي 1837 م ، بعد التقدم العظيم الذي حصل عليه الأمير في الميدان العسكري ،

وكذلك انهزام القوات الفرنسية أمام حامية قسنطينة على يد رجال الحاج أحمد باي زعيم بايلك الشرق ، ورائد المقاومة به .

وجاء في البند العاشر : " المتجر يكون حرا بين **العرب والفرنسيين** ، وللجميع أن يستمتعوا بالتبادل في كل من الأرضين " ، وجاء في البند الحادي عشر لفظة " بلاد العرب" بصراحة ، لقد كانت هذه المعاهدة اعترافا صريحا من حكومة فرنسا بإمارة الأمير التي أصبحت تشمل ثلاثة أرباع مقاطعة الجزائر [27] .

6 . 4 . اللغة العربية في لواء الأمير :

كانت دولة الأمير دولة قائمة بذاتها لها عاصمتها ، ومجلس الشورى العالي الأميري ، ويتكون من أحد عشر عضوا من كبار العلماء والأعيان ، ويترأسه قاضي القضاة ، كما نجد حكومة تتكون من وزارات ، ويعبر عنها بالنظارات وهي : وزارة الداخلية ووزارة الخارجية ، ووزارة المالية ، ووزارة الأوقاف ، ووزارة الأعشار ، ووزارة الزكاة ، ووزارة الحربية ... ، كما اتخذ الأمير لواء ، وهو عبارة عن قطعة من الكتان الحريري أعلاها وأسفلها أخضران ووسطها أبيض ، مرسوم عليه بالذهب المراكشي في صورة دائرة تامة " نصر من الله وفتح قريب ، ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين " ، وفي وسط الدائرة صورة يد مبسوطة مطرزة بالذهب [28] . فهذا اللواء لم يفارقه الخط العربي رمز الانتماء ، و مضمون الكتابة يبين الانتماء الديني ، و هو الإسلام .و هكذا فعنصرا الهوية الجزائرية من دين و لغة ثابتان في لواء الأمير .

6 . 5 . اللغة العربية في خاتم الأمير :

هناك وظائف أخرى خارج الحكومة مثل كتابة الديوان الأميري ، والحجابة والقضاء بنوعيه المدني والعسكري ، والإفتاء والعدل والكتبة ... ويمتاز كاتب الديوان الأميري بكونه هو الذي يختم بطابع الأمير الخاص المراسيم التي تصدر عنه ، وطابع الأمير عبارة عن خاتم كبير الحجم تنقش عليه في دائرته :

" ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آسادها تجم " .

وفي جوانبه : " الله ، محمد ، أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي " ، وفي وسط الدائرة : " الواثق بالقوي المتين ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين " [29] .

فنرى أن خاتم الأمير أيضا لا يحتوي على أي حرف أجنبي ، و عناصر الانتماء إلى الإسلام و اللغة واضحة أيضا ، و هناك خواتيم أخرى كتب عليها اسمه فقط " عبد القادر بن محي الدين " و هذا الختم موجود بكثرة في مراسلاته.

6 . 6 . اللغة العربية في نقود الأمير :

بعد معاهدة التافنة ابتنى الأمير - الذي شجعه استقرار علاقات السلام مع فرنسا - دارا للسكة ، كانت تخرج أنواعا من النقود المضروبة من الفضة والنحاس .

يذكر الأستاذ صالح بن قربة في مقال له بعنوان نقود الأمير عبد القادر الجزائري رمز السيادة والاستقلال دراسة حضارية أن سكة أو نقود الأمير عبد القادر التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظم الحكم ومفهوم الملك، والتي وصلتنا منها مجموعة هائلة ، هي الآن ضمن ممتلكات بعض المتاحف الوطنية و المغاربية والأجنبية.و لها أهميتها بصفتها وثائق رسمية معاصرة للأحداث التي شهدتها البلاد آنذاك، قد تساعد في تشخيص ومعرفة بعض الحقائق التي تتعلق بالفترة التي وجدت فيها.

نورد هنا باختصار شديد ما يتعلق بما هو مكتوب في هذه النقود و هو الأمر الذي يهمني كونه يتعلق بالحرف العربي في رمز السيادة الوطنية و هي النقود .

1 . النّصفية قطعة نقدية صغيرة الحجم خفيفة الوزن ، استعملت كوحدة نقدية ، ساهمت في مرونة العمليات التجارية خصوصاً البيع والشراء. هذا فيما يخص شكلها وقيمتها الشرائية؛ وبخصوص نصوصها الكتابية، نجد على الوجه كتابة مركزية من أربعة سطور أفقية تشير إلى هذا الاقتباس:

1 - الله**2** - حسبنا**3** - ونعم**4** - الوكيل

ويقرأ هذا الشعار هكذا: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وعلى الظهر كتابة مركزية أيضاً من أربعة سطور تشير إلى مكان الضرب وتاريخه.

1 ـ ضرب**2** ـ في**3** ـ تاقدمت**4** ـ 1250.

ويلفت الانتباه هنا كتابة التاريخ بالأرقام الهندية. وهذا الأسلوب في التعبير عن التاريخ ظهر مع الأتراك العثمانيين لأول مرة في تاريخ المسكوكات الإسلامية. ومنذ ذلك الوقت، أصبح تقليداً في الجزائر حتى عهد الأمير عبد القادر الجزائري.

2 ـ نقود فضية مؤطرة من الوجهين بثلاث حلقات تضم الكتابتين المركزيتين، أما فيما يتصل بنوع الكتابات المسجلة ، فهي جديدة في معناها ومغزاها والهدف الذي ترمي إليه. ففي مركز الوجه كتابة من أربعة سطور أفقية متوازية تشير إلى الآية القرآنية التالية، نفذت بطريقة الحفر البارز بأسلوب الخط النسخي المغربي.

1 ـ ربنا **2** ـ أفرغ علينا **3** ـ صبراً وتوفنا **4** ـ مسلمين

وخصصت كتابة مركز الظهر لتسجيل مكان الضرب وتاريخه بالطريقة المعروفة:

1 ـ ضرب **2** ـ في **3** ـ تاقدمت **4** ـ .1250

3 ـ المحمدية : تتدرج نقود المحمدية، من حيث التصنيف النوعي، ضمن الفلوس النحاسية التي تمثل القاعدة النقدية الثانية في نظام سكة تاقدمت تحمل الفلوس النحاسية نصوصاً كتابية على غرار سابقتها من حيث الشكل، وتختلف عنها من حيث المغزى والمعنى.

في الوجه كتابة من ثلاثة سطور أفقية متوازية تشير إلى الآية القرآنية التالية:

1 ـ إن الدين **2** ـ عند الله **3** ـ الإسلام **4** ـ تاقدمت

أما كتابة مركز الظهر، فتحتوي هي أيضاً على مكان الضرب وتاريخه في أربعة سطور هي:

1 ـ ضرب **2** ـ في**3** ـ تاقدمت**4** ـ 1256

يتبين مما سبق أن الأمير عبد القادر يجعل من القرآن الكريم منطلقه الاقتصادي ، و من التاريخ الهجري أيضا منطلقا للتأريخ ، و ضبطا للزكاة ، و لكن يبقى الأمر الواضح و هو عدم وجود أي حرف أجنبي عدا الحروف العربية .

لقد بقي الأمير عبد القادر يدافع عن استقلال الجزائر وعدم الرضوخ للسياسة الفرنسية ، وذلك ظاهر في كل مراسلاته ، وكان يعتبر الاحتلال الفرنسي سحابة صيف ، ولهذا يقول في رسالته إلى بوجو سنة 1841م : " إن فرنسا ستمضي وتتراجع ، ولكنها بدورها ستضطر إلى التراجع ، وعندئذ سنعود " ، وقد شبه الأمير مقاومته وهي في عنفوانها بالموجة التي لا تتأثر بلمسة من جناح طائر: " هل تتوقف الموجة عند الصعود والتضخم عندما يلامسها جناح طائر أثناء طيرانه السريع ؟ تلك هي صورة مروركم بإفريقية (الجزائر) " [30] ، هناك مظاهر كثيرة للدفاع عن اللغة العربية في الدولة العربية الفتية التي أعاد بعثها الأمير عبد القادر ، كممثل للتيار العربي الإسلامي على حد تعبير أبو القاسم سعد الله ، و لا تزال هذه المظاهر الثقافية بحاجة إلى دراسة و تدقيق ، ربما تلك المظاهر ستظهر بوضوح في منفى الأمير بالمشرق ، و لكن أقتصر على ما كان منه على أرض الجزائر حينما كان رافعا راية المقاومة و الجهاد ضد الفرنصيص

.هوامش البحث:

[1] ـ العربي منور ـ **تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر** ، الجزائر : دار المعرفة ، 2006، ص : 38 .

[2] ـ العربي منور ، **تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر** ، ص : 39 .

[3] ـ الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية ، 2001 ، جامعة الجزائر ، ص : 10 .

[4] ـ أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج : 1 ، ص : 167 .

[5] ـ كان الاتفاق الذي جرى بين الباي حسن بن موسى والسلطات الاستعمارية شبيها بما جرى بينها وبين حسين باشا ، مما في ذلك ضمان أمنه الشخصي ، وأملاكه وحريمه، وكذلك أمن وحماية أملاك السكان واحترام دينهم ونسائهم ، ولكن نص الاتفاق غير معروف لنا الآن . سعد الله ، م . ن ، ص ، 168 .

[6] ـ العربي منور ، تاريخ المقاومة الجزائرية ، ص : 40 .

[7] ـ سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، دار الغرب الإسلامي، ط : 1 ، 2005، ج : 1 ، ص : 129 .

[8] ـ تحفة الزائر ، ص : 147 .

[9] ـ م . ن ، ص ، 130 .

[10] ـ فؤاد صالح السيد ، **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا** ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، ص : 191 .

[11] ـ ممدوح حقي :الديوان ، ص : 36 .

[12] ـ الديوان ، ص : 32 ـ 33 ـ 36 ـ 37 ـ 54 .

[13] ـ ممدوح حقي : الديوان ، ص : 36 .

[14] ـ الديوان ، ص : 36 .

[15] ـ سعد الله ، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** ، ص : 131 .

[16] ـ شارل هنري شرشل ، **حياة الأمير عبد القادر** ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله (الجزائر : عالم المعرفة ، ط خاصة 2009) ص : 184 .

[17] ـ إسماعيل العربي ، **المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط : 2 ، 1982 ، ص : 241.

[18] ـ شارل هنري شرشل ، **حياة الأمير عبد القادر** ، ص : 192 .

[19] ـ شارل هنري شرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ص : 200 .

[20] ـ تشرشل ، **حياة الأمير** ، ص : 9 .

[21] ـ م . ن ، ص : 10 .

[22] ـ يحي بوعزيز ، **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري** ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الدار العربية للكتاب ،ص : 52 ، ينظر نصها في المرجع نفسه .

[23] يمكن الرجوع إلى مؤلفاته الشعرية و النثرية حيث ألف في التصوف كتاب: (المواقف) و(المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) و(ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) وكانت له قدم راسخة في الشعر، جمع شعره في ديوانه و على عكس ما يظنه البعض فان الامير عبد القادر كتب اشعارا في الغزل العفيف في قمة الروعة و الجمال رغم باسه و شجاعته و علمه وكتب في الفخر والحماسة والاعتزاز بالدين والوطن.. ، وأسلوب كتابته لا يزال يدرس في كليات الأدب ، بل الكثير من الأدباء يعتبره باعث النهضة الأدبية الحديثة قبل البارودي .

[24] ـ عميراوي حميدة ، **موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي** ، الجزائر : دار الهدى ، 2003 ، ص : 98 .

[25] المرجع نفسه ، ص 77 ـ 78

[26] المقصود الأراضي المحتلة من الجزائر .

[27] ـ يحي بوعزيز ، **الأمير عبد القادر** ، ص : 65 .

[28] ـ م . ن ، ص : 84 .

[29] ـ يحي بوعزيز ، الأمير عبد القادر ، ص : 85 .

[30] ـ تشرشل ، **حياة الأمير** ، ص : 11 .